التربية التمايزيّة في عصر الفروقات الفرديّة

تحتلُّ المؤسّسةُ التربويّة وما تقومُ به من عمليات تعليم – تعلّم هادف دورًا أساسيًّا في التنمية الفكريّة للأجيال، وبالتالي نشر الثقافة والمكتسبات الأخلاقيّة والروحيّة للإنسان. أي بمعنى آخر نشر الإرث الثقافي والفنّي والفلسفي في المجتمع. فمِمّا لا شكّ فيه أنّ النظام التربوي في حالة تفاعلٍ دائمٍ، مباشر ومستمرّ مع النظام السياسي والاجتماعي. واليوم، ضمن إطار مجتمع يتّسمُ بالتباعد الروحي والفروقات الفرديّة، وعدم المواطنة، وفرض الرغبات والمنافع الشخصيّة، وتفكّك الروابط العائليّة والاجتماعيّة، لا بدَّ لنا، نحن الأساتذة والمعلّمين والتربويين من التوقّف والتساؤل حول القواعد والمكوّنات الأساسيّة والأهداف التي تقوم عليها عمليّة التعليم – التعلّم.

فمن جهةٍ، لم يعدْ باستطاعتِنا تجاهلَ الفروقاتِ الفرديّة، وعدم الاكتراث بالاختلافات، ومن جهةٍ أخرى، لا نستطيعُ تجاهلَ الواقعَ السياسي والاجتماعي الأليم الذي نعيشُ فيه يوميًّا.

فما هو الأكثر إلمامًا؟ أهي الأهدافُ التعلّميّة ضمن إطار المادّة التعلّميّة، أم هي الأهدافُ التربويّة والاجتماعيّة؟

من البديهي أن يسأل المربّي نفسه: ماذا يعلّمُ ولماذا يعلّم، وكيف يعلّم؟ أي لغةٍ يتكلّم، وأيّ لغةٍ يتكلّم المتعلّمون؟ هل بإمكانه أن يوفّقَ بين المناهج والبرامج والامتحانات، والإدارة الصفيّة والفروقات الفرديّة والتنشئة الاجتماعيّة؟ ما المطلوب؟

فلننطلقْ أيّها الزملاءُ من بعض الحقائق والوقائع:

نحن نعلمُ جميعًا، أنّه لا يمكن لتلميذين التعلّم بالطريقة ذاتها، أوالتفاعل مع المعلومة بالطريقة ذاتها، أو أن يُبديا الاستعداد والاهتمام ذاته، فكلّ تلميذ يختلف عن الآخر، وهذا الاختلاف يبدأ بالتكوّن مع نموّه الأوّل ويتّسعُ هذا الاختلاف تِبعًا لعوامل كثيرة، تؤثّرُ في الطفل، فبالإضافةِ إلى الاختلافات في الاستعدادات العقليّة والجسديّة، والاستعدادات الانفعاليّة، فإنّ الفرقَ الكبير يظهرُ في تنوّع الخبرات التي يتزوّد بها الطفلُ في سنواته الأولى، والتي من شأنها أن تؤثّر في سير تلقيه العلم لفترات طويلة.

من هنا القول، إنّ كل تلميذ يتعلّم بصور وبسرعات وبإيقاعات مختلفة.

إنّ إلزام ثلاثين طالبًا بتعلّمِ سلسلة من الحقائق بالطريقة نفسها، وبالوقت ذاته، ضمن مجموعة واحدة، هو لا شكّ التنكّر لنظريات علم النفس المعرفي وعلم النفس التنموي التي أثبتت جدواها في هذا العصر.

لا مفرّ اليوم من اللجوء إلى التربية التمايزيّة، إن شئنا احترام حاجات المتعلّم. فالتربيةُ التمايزيّةُ ترفض مبدأ اللامبالاة في الاختلافات ، L indifference aux differences ، فتنطلقُ من التلميذ وتتمحورُ حوله. فبالاختلافات هنا، لا نتكلّمُ عن الصعوبات التعلّميّة التي تتطلّبُ مشاركةَ ومساندةَ فريقٍ كاملٍ من الأخصائيين، بل نتكلّمُ عن الاختلافات بمعنى التنوّع بين التلامذة ضمن الصف الواحد والذي يفرضُ

على المعلّم مقاربةً لعمليّة التعليم – التعلّم تختلفُ تمامًا عن المقاربة التقليديّة الكلاسيكيّة. فاختلافُ التلاميذ وتنوّعهم أمرٌ يحثُّ الأستاذَ دائمًا على خلق طرق ووسائل تضعُهم في وضعيّاتٍ تعلّميّة تشكّلُ لهم تحدّيًا علميًا محفّزًا تتلاءمُ مع قدراتهم الذهنيّة والفكريّة والجسديّة، وتجعلهم بالتالي قادرين على حلّ المسائل مع مساندة تعليميّة أو باستقلاليّة تامّة. هذا التمايز الإيجابي يحفّز على المشاركة والتواصل، لأنّ المتعلّم يبني المعرفةَ عبر التفاعلات بينه وبين الآخر، وبين المحيط البيئي، ما يسمحُ للمعلّم بتنميةِ قيم العيش المشترك مع الآخر والتنشئة الاجتماعيّة، بالإضافة إلى أهدافه التعليميّة والصفيّة. فبالتمايز يساوي المعلّم بين المتعلّمين، بإعطاء كلّ واحدٍ منهم فرصَته في النجاح. فلا يميّزُ المعلّمُ في الأهداف سواء أكانمت تعليميّة أم سلوكيّةأم تربويّة أم تعليميّة، فالأهداف العامّة هي للجميع، بل يميّزُ في الأهداف الخاصّة، ويميّزُ إيجابيًا في التنوّع بالأساليب لتحييد الآليات التي تسبب الفشلَ والرسوبَ المدرسيّ.

ربّما يسهلُ الكلام، ولكنّ التطبيقَ داخلَ الصفِّ ضمن النظام المدرسي، أمرٌ ليس بهذه البساطة. فالمدرسةُ تصنعُ الضغوطات والعقبات التي قد تحدُّ أحيانًا من حريّة الأستاذ في ممارسته مهنته.عفوًا أنا لا أنتقدُ بتاتًا النظام المدرسي، على العكس تمامًا، إنّما أحاولُ تسليطَ الضوء على حقيقة الواقع ومواجهة الصعاب، فربما نجدُ بعضَ الحلول.

أخي وزميلي المعلّم، دعنا نرى سويًّا كيف يمكنك تحقيق التوازن بين كلّ هذه المهام التي تُنسبُ إليك، والتي من المطلوب إنجازها، وتحافظُ بالوقت نفسه على توازنك الشخصي كإنسان يعاني أيضًا من الضغوطات على جميع الأصعدة؟

جوابي لك بسيط وواضح:

إنّ قناعاتك في ممارساتك التربوية هي الأساس:

– هل أنتَ تؤمن أنّك مربٍّ ومدرّب ومشرف ووصي، أم تعتبر نفسك مجرّد ناقل للمعلومات؟

– هل تدركُ أنّ الأفرادَ يرون العالم من جوانب مختلفة؟ وأنّ التلامذة يستخدمون نقاطًا عقليّة وماديّة ووجدانيّة مختلفة لبناء المعرفة، وفهم الواقع؟

– هل تدركُ أنّ بناء المعرفة يقوم على التساؤل والمساءلة عن طريق طرح الأسئلة وليس عن طريق الحصول على معلومات وعلى الإجابات الصحيحة؟

– ما هو الأهم؟ النتيجة النهائيّة أم الوسيلة؟ هل الغاية تبرّر الوسيلة؟

– هل تؤمن أنّ التعلّم يُحقّق عن طريق التفاعل الاجتماعي والبيئي أم عن طريق الوحدة والعزلة؟

– هل تؤمن بالاختلاف والتنوّع؟

إذا كانت تلك قناعاتُك، فلا مكان للخوف والتردّد حيث توجد القناعات.

فلا تستسلم و لا تتقيد بالمثل القائل " العينُ بصيرة و اليد قصيرة"..... إذا كانت لك القناعة والكفاءة والإرادة والشجاعة، فلا شك في أنّك تستطيع التغيير في ممارستك لمهنتك رغم الضغوطات...

تستطيعُ التكييف والتكيف..... فبدلاً من أن تشرح درس قراءة وتطرح الأسئلة ذاتها على المجموعة ، تستطيع تكييف الدرس وفقًا للحاجات وبحسب مستويات التلاميذ الذين في صفك .....فتقسّم الصف إلى مجموعات متناغمة، حيث كل مجموعة تتعاطى مع النص بحسب الاختلاف والتنوع.....الهدفُ واحدٌ ولكن المقاربة تختلف.

فيمكنُ لفريق أن يطرح الأسئلة ويتفاعل مع الكاتب لاستخراج المضمون، ولفريق ثان أن يقوم باستقراء الصورة لفهم ذات المضمون ولفريق ثالث أن يستخرج الرسالة الضمنية التي يتناولها النص أو بالعكس أن يتناول فقط المحور الأساسي للنص....

إذا كنت تؤمن بقناعاتك فلا بدّ لك من تحقيقها

- بتنوع الأساليب.
- بخلق مساحات داخل الصف، (الزوايا للّعب والقراءة والكتابة والإبداع.....)
- بتنوع الأمثلة والطرق والقيادة.
- بطرح الفرضيات باعتماد المخططات التربوية .....

أي باختصار، التعدد والتنوع في العملية التعلمية بشكل أن يطال كل تلميذ المعرفة مهما كان اختلافه.....

فبالمخاطرة والإرادة والثبات والمثابرة نحققُ ما نؤمن به.

فلنؤمن جميعًا بأن رحلة الألف ميل تبدأُ بخطوة .